المحاضرة الأولى : جغرافية العراق التاريخية ٠

أصل التسمية :

أختلف الباحثين في تحديد أصل كلمة (عراق) فهناك من يرى ان أصل الكلمة عربي بمعنى (الشاطئ) او (الجرف) ، في حين يرى آخرون ان الكلمة من أصل فارسي من (آيراه) التي عربت الى ايراق ثم عراق ، وان التسميتين (ايران وعراق) من كلمة (آيراكَ) ٠

ورأى الاستاذ طه باقر انه من الممكن ان يكون أصل كلمة (عراق) من التراث اللغوي العراقي القديم ، وانه ربما اشتق من كلمة (اوروك)التي تعني (المُستَوطَن) وهي نفس الكلمة المستخدمة في مدينة الوركاء والداخلة في تركيب اسماء جملة مدن قديمة مثل اور و لارسا ، الا ان التسمية (اوروك) لم تستخدم لدى العراقيين القدماء للدلالة على القطر كله بل على مدينة واحدة ٠

وأطلقت على بلاد وادي الرافدين تسميات (كي . اين . جي) والتي تعني بلاد سومر (حالياً محافظات القادسية وذي قار والمثنى والبصرة) ، و (كي . اوري) لتعني بلاد أكد (حالياً يرجح أن تبدأ من حول تكريت إلى جنوب الحلة) ، مع ضرورة الإشارة إلى عدم وجود حدود طبيعية تفصل بين سومر وأكد ، وتمكن الملك السومري (اوتو حيكال) (سلاسة أور الثالثة) من طرد (الكوتيين) وتحرير وتوحيد البلاد وليطلق على نفسه اسم (ملك سومر وأكد) وظل هذا الاسم شائعاً إلى آخر عهود العراق التاريخية تقريباً ، أما القسم الشمالي من العراق فقد عرف بأسم (سوبارو) أو (سوبارتو) المشتق من اسم (السوباريين) (الفراتيون الأوائل) الذين سبقوا السومريين في سكنى جنوب العراق ، ثم أطلق البابليين اسم (سوبارو) لتعني الشمال ، كما أطلق الكشيون لفظة (كار دويناش) على بلاد بابل ، وهي تعني (بلاد الإله دويناش) الرب القومي لهم ، واستمر الآشوريون يطلقون هذه التسمية على بلاد بابل حتى عصور متأخرة ، أما تسمية (عبر النهر) فهي من (ايبر ناري) أطلقها الأخمينيون على العراق وقسم من سوريا حتى حدود فلسطين في أثناء احتلالهم العراق ٠

الموقع :

يقع العراق في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا ، وكانت لهذا الموقع أهمية إستراتيجية وتجارية كبيرة ، لأنه يقع على الجسر الأرضي الذي تلتقي فيه القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقيا ، كما أنه يقع عند ملتقى طرق القوافل التجارية القادمة من المحيط الهندي والشرق الأقصى بأتجاه البحر الأبيض المتوسط من خلال الخليج العربي ، وكان لهذا الموقع أهميه في

اتصال ابناء العراق القديم بغيرهم من الاقوام عن طريق التجارة ، فكان ان انتقل العديد من العناصر الحضارية من والى العراق ، نتيجة احتكاك العراقيين القدماء واتصالهم بالاقوام الاخرى كما ان وقوع العراق الغني بموارده الزراعية والمائية ، ولا سيما سهله الرسوبي الممتد بين منطقتين تفتقران لهذه الموارد الطبيعية ، هما المنطقة الجبلية في الشمال والشمال الشرقي ، والمنطقة الصحراوية في الغرب والشمال الغربي ، قد أثر في تتابع الهجرات والغزوات عليه وكانت ردود فعل الملوك والحكام سريعة ، فقد قاموا بحملاتهم العسكرية المستمرة لصد الغزو والحد من الهجرة ونجحوا أحياناً وفشلوا أحياناً أخرى ٠

أثر الجغرافية في نشوء وتطور الحضارة العراقية القديمة :

كان للعوامل الجغرافية والبيئة الطبيعية تأثير كبير في حضارة العراق القديمة في الجوانب الآتية

١ – التركيب السكاني :

يقع العراق بموارده الزراعية والمائية ، ولا سيما سهله الرسوبي ، بين منطقتين متشابهتين من حيث افتقارهما للموارد الطبيعية نسبياً على الرغم من اختلافهما البيّن في المناخ والتضاريس ، الأولى هي المنطقة الجبلية في أطراف العراق الشمالية والشمالية الشرقية ، والثانية البوادي الصحراوية في الأطراف الغربية والجنوبية الغربية ، وبين هاتين المنطقتين يمتد السهل الرسوبي إقليماً مفتوحاً لا يفصله عنهما أي حاجز طبيعي ، باستثناء نهر دجلة ٠

نتيجة لهذه الطبيعة الجغرافية ، تتابعت هجرة الاقوام الجزرية القادمة من الغرب والشمال الغربي والاقوام الهندية – الاوربية القادمة من الشرق والشمال الشرقي على مر العصور ، وكانت الهجرات الجزرية على نطاق واسع الى درجة انها كوّنت في نهاية الأمر الجزء الاعظم من سكان العراق في حين تغلغلت بعض الاقوام الهندية – الاوربية واستقرت بين السكان في اثناء الغزو الذي تعرض له العراق من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية ، فكان لذلك أثر كبير في التركيب السكاني في العراق ٠

٢ – نشوء أول أنظمة الحكم :

ان معدلات سقوط الامطار في القسم الشمالي للعراق بأكمله كافية لنمو الحبوب والبقول والبساتين على اختلافها مما دفع السكان الى الاعتماد على الزراعة الديمية خاصة وأن الأراضي الزراعية المحيطة بشواطئ الانهار مرتفعة نسبياً عن مستوى المياه ، ومن ثم يصعب سقيها سيحا بواسطة القنوات والجداول وكان من نتائج ذلك ان ظلت القرى الزراعية المنتشرة في القسم الشمالي من العراق صغيرة ومعتمدة كلياً على مياه الأمطار ومكتفية ذاتياً ، وما تصرفه من

جهود لا يعدو حراثة وزراعة الأرض والانتظار حتى يحين موعد الحصاد ، لذلك لم تكن حاجة السكان ماسة لإيجاد طرق ووسائل لإدارة شؤون المجتمع تشمل عدداً كبيراً من القرى ، بل اكتفت كل قرية او مدينة صغيرة بما لديها وعاشت بهدوء واطمئنان ٠

اما القسم الوسطي والجنوبي من العراق فأن معدل سقوط الامطار كان وما زال غير كاف لأي نوع من انواع الزراعة لذا ، كان لا بد للانسان بعد ان استقر في هذا الجزء من العراق من الألف الخامس قبل الميلاد أن يعمل على ري الأراضي الزراعية بالطرق الاصطناعية ، فيشق الترع والجداول ويقيم الاسداد لتوجيه مياه الانهار إلى الأراضي ، وكان لا بد لهم للاحتماء من خطر الفيضانات من إنشاء مشاريع للري وتصريف المياه الفائضة وإقامة السدود ودرء اخطارها ٠

ولما كان السكان موزعين على المناطق المختلفة ، وكان توزيعهم يحدد بالدرجة الرئيسة وجود مصادر المياه الكافية لري الأراضي ، ونظراً لتعدد الأنهار وكثرة الاهوار والمستنقعات ، فقد نمت أكثر من إدارة مركزية واحدة في المنطقة ، كانت كل منها نواة لقيام دولة مدنية صغيرة تتمركز حول إحدى المدن الرئيسية ، وهكذا كان لطبيعة ارض العراق وأنهارها ومناخها الأثر الكبير في نشوء أول أنظمة الحكم في القسم الجنوبي من العراق منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، بينما تأخر ظهور مثل هذه الأنظمة في القسم الشمالي من العراق عدة قرون ٠

٣ – كثافة السكان :

اتصفت البيئة الطبيعية العراقية في العراق ، ولا سيما في قسمه الجنوبي ، بالقسوة والعنف ٠فضلاً عن تباين مناخ المواسم المختلفة والتفاوت الشديد بين درجات الحرارة صيفاً وشتاءاً ونهاراً وليلاً ، وتباين المناطق التي يتكون منها العراق ، فقد اتسمت فيضانات أنهاره بالعنف والقوة وعدم الانتظام في المواعيد وعدم ملائمة مواعيد الفيضانات لموسم الدورة الزراعية خلافاً لما كانت عليه الحال في مصر المعتمدة على نهر النيل في حياتها وكان من نتائج هذا العنف والقسوة في طبيعة وادي الرافدين ، أن اتصفت الحضارة التي قامت في السهل الرسوبي بالعنف والتشاؤم والتوتر والتأزم وتوقع المفاجآت وطغت عليها الناحية العملية في الحياة ، وقد انعكس ذلك على نفسية الفرد العراقي ٠

٤ – المعتقدات الدينية :

اثرت طبيعة أرض الرافدين وقسوتها وصعوبة السيطرة عليها في معتقدات القوم الدينية وتصوراتهم واتجاهاتهم الفكرية ، فجاءت القصص والأساطير الدينية مليئة بالصراع والاحتراب من أجل البقاء ، كما شغلت العراقيين القدماء الحياة وقسوتها فلم يفكروا الا بها وبما تتطلبه من

صراع وكفاح فلم يبلوروا فكرة واضحة عن الحياة الثانية بعد الموت ، بل ظنوا ان العقاب والثواب سيكونان في هذه الدنيا فقط خلافاً لما كانت عليه الحال عند المصريين القدماء الذين اهتموا بحياة ما بعد الموت ٠

٥ – الحياة الاقتصادية :

كان لافتقار العراق للمواد الأولية الضرورية لقيام ونمو الحضارة كالمعادن والأخشاب والأحجار ، نشوء حركة لاستيراد المواد الخام من البلدان والاقاليم المجاورة ، فنشطت التجارة الخارجية ونظمت القوافل ووضعت القواعد الرصينة لمثل هذه التجارة ، ونتيجة لذلك سعى الحكام والملوك للسيطرة على طرق المواصلات المؤدية الى مصادر هذه المواد ، فقامت الحروب والمنازعات بين الدول والممالك الصغيرة المتجاورة ، وكان ذلك من اسباب توحيد الدولة الصغيرة في دولة واحدة ما لبث ان غدت امبراطورية واسعة تسيطر على جميع الطرق التجارية التي تصل بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي ٠

وقد اثبتت التنقيبات الاثرية وجود أكثر من عشرة مراكز تجارية آشورية من العصر الآشوري القديم (بحدود ٢٠٠٠ – ١٨٠٠ ق.م) في اقليم كبدوكيا جنوب شرقي الاناضول ، كما كانت علاقات بلاد سومر وأكد ببلدان الخليج وما وراء الخليج قوية جداً ، مثل علاقاتهم مع دلمون (البحرين) ومكَان (عُمان) وميلوخا (وادي السند او الحبشة) ٠

اما داخل العراق فقد كانت خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ حوافز وعوامل وجهت السكان بصورة عامة الى الزراعة وانتاج الحبوب وزراعة البساتين ، ولموقع العراق المهم ، اهتم سكان بابل بالتجارة ، وصدرت فيها القوانين والمراسيم الملكية لضبطها واطلق بعض الباحثين المحدثين اسم (مجتمع التجار) على المجتمع العراقي في العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م) ٠

٦ – طرق النقل والمواصلات :

وفرت انهار العراق الرئيسة دجلة والفرات ، والفرعية طرقاً مائية جيدة قليلة الكلفة لنقل السلع والبضائع التجارية والمسافرين كما استخدمت لأغراض الصيد والحرب ، وزادت اهمية المواصلات النهرية لان معظم مدن العراق القديم كانت تقع على شواطئ الأنهار أو قريبة منها ، وقد طور العراقيين القدماء منذ مدد مبكرة وسائط النقل فصنعوا القارب الشراعي منذ الالف الرابع قبل الميلاد ، كما صنعوا قوارب مختلفة الاشكال والأحجام لنقل البضائع والافراد واستخدموا السفن الشراعية ٠ولم يقتصر استخدام وسائل النقل النهرية على داخل القطر ، بل ان السفن

والقوارب استخدمت للاتصال بالبلدان والاقاليم المجاورة ولا سيما الخليج العربي وبلاد الشام ، وقد تفاخر سرجون الاكدي بأن اول سفن دلمون ومكَان وميلوخا كانت ترسو في ميناء أكد٠

مصادر ومراجع للاستزادة :

١ – عصور قبل التاريخ | د. تقي الدباغ و د. وليد الجادر | مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٣ ٠

٢ – تاريخ حضارة وادي الرافدين ج١ | د. احمد سوسة | ط بغداد دار الحرية ١٩٨٦ ٠

٣ – مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج١ | طه باقر | دار الوراق ٢٠٠٩ ٠

٤ – الشرق الادنى القديم مصر والعراق | د. عبدالعزيز صالح | ط القاهرة ٢٠٠٩ ٠

٥ – من ألواح سومر | صموئيل نوح كريمر | ط ومؤسسة فرانلكين للطباعة والنشر ٠

٦ – سلالات وبيئات الإنسان | د. فاروق كامل عزالدين |طبعة جامعة الزقازيق مصر ٠

٧ – العراق في التاريخ القديم ، عامر سليمان ، القسم الاول ٠

٨ – هاري ساكز ، عظمة بابل ٠